

الجزائريون في الفترة الاستعمارية من أهالي إلى «أنديجان»¹

أ.عبد القادر سباعي
جامعة بشار

إن استعمال مصطلح الأنديجان Les Indigènes المقصود به السكان المحليين يعود تاريخيا إلى مرحلة توسع الإمبراطورية الرومانية في أوروبا، أما في العصر الحديث أُستعمل في البدء للدلالة على المستوى الحضاري للشعوب البدائية التي تم التعرف عليها أثناء موجة الاستكشافات الجغرافية ما بين القرنين 15م-18م، حيث قسم الأوروبيون العالم آنذاك إلى ثلاثة مستويات: المجتمعات المتحضرة وهي الأوروبية، والمجتمعات الحضارية وهي التي عرفت حضارة ما سبقا كالعالم الإسلامي والهندي والصيني...ألخ، والقسم الأخير هم الأنديجان وهي المجتمعات غير الحضارية أو المجتمعات البدائية أو كما يطلق عليها من قِبَل الأنتروبولوجيين بالمجتمعات الطبيعية كالأبوريجان والبوشمن والهنود الحمر.

ولكن أثناء المرحلة الإستعمارية الحديثة وخلال القرن 19م عُممت كلمة أنديجان على كل المجموعات الإثنية غير الأوروبية، والتي كانت تعيش خارج الحضارة الغربية لأنها في نظرهم مجتمعات غير متمدنة أو بدائية، ولهذا نجد كل الشعوب المستعمرة أُطلقت عليها تسمية «الأنديجان»، ولكن اختلفت دلالة هذه التسمية حسب شكل الاستعمار ومرحلته وطبيعته القانونية، فمن هذا المنظور نتساءل عن الدلالة الحقيقية التي كانت تحملها هذه الكلمة ؟

الخلفية الكولونيالية لمصطلح الأنديجان

لقد أخذت كلمة أنديجان معنى جديدا أثناء الفترة الاستعمارية، ففي اللغة الفرنسية هي دلالة إضافية لمفهوم التحقير، فالأهلي («الأنديجان») نعني به ذلك الفرد الغير متحضّر أو الغير مواطن²، الذي كان ينظر إليه على أنه ذلك الآخر، هذه الدلالة التحقيرية والدونية كانت من الأدوات القمعية أثناء تنفيذ القوى الكولونيالية مشاريعها، وتستعمل هذه الكلمة إما إسما أوصفة في ميدان العلوم الإجتماعية والتاريخية، وقد زكت هذا المنحى آنذاك في الغرب دراسات ونظريات علماء الاجتماع والإثنولوجية والأنتروبولوجية، وأصبحت كلمة «أنديجان» صفة تستعمل للدلالة على المستوى الاجتماعي والثقافي والديني البدائي للسكان المحليين (الأهالي) للمستعمرات، وبالتالي كان لهذه التسمية دلالة أنتروبولوجية أكثر منها سوسيولوجية، وأصبح كل الأهالي (السكان الأصليين) بالمستعمرات في نظر الأوربيين عبارة عن «أنديجان» لأنهم يعيشون حالة الوحشية والبدائية ويحتاجون إلى من يدخلهم وينقلهم من

الحالة الطبيعية إلى المدنية، وهذا هو الطرح الذي كان شائعا لدى الغرب، وقد تغنت به وتحججت به الدول الاستعمارية خلال القرن 19م لتمرير فكرتها التمديدية ولتبرير فعلها الكولونيالي .

إن الإستعمال الواسع لمصطلح « أنديجان » وتعميمه على كل الجزائريين خلال الفترة الاستعمارية بغض النظر عن انتمائهم الديني أو العرقي يؤكد النظرة ويوضح الطرح الذي كان سائدا ومعتمدا، والذي اعتبر صفة « أنديجان » هي المصطلح الذي يمكنه حمل تلك الدلالة التحقيرية والدونية والاستهزائية للجزائريين، فإن إنتاج الصورة السلبية عن الآخر (الجزائري) أخذت مكانتها منذ السنوات الأولى للإستعمار كقاعدة خلفية للغزو الإستعماري، وذلك بالإعتماد على الخطاب العنصري الموسوم في الأدبيات والبرامج المدرسية بالخطاب العلمي³، وقد نتج عن ذلك نشر صور مرعبة عن السكان الجزائريين، مضمونها يؤكد صفات الجنس البدائي البربري المتوحش لهذا الكائن الغريب⁴ .

ومن هذا المنظور علينا أن نتساءل عن حقيقة هذا الاختلاف أو الخلاف حول كلمتي « أنديجان »/ رعية، وهل أعتبر هؤلاء الأنديجان أثناء المرحلة الاستعمارية رعايا فرنسيين من الناحية القانونية أم كانوا رعايا لفرنسا يخضعون لسيادتها وحمايتها فقط ؟ ولا نريد الخوض في مسألة التمييز بين سكان الجزائر كما هو معروف مما كتبه الباحثون والدارسون للمجتمع الجزائري وما كانت تستعمله السلطة الكولونيالية من صفات لمخاطبة سكان الجزائر، ومنها:

- « الأنديجان » بشكل عام عند مخاطبة المسلمين واليهود.
- « الأنديجان » المسلمين عند الجمع بين العرب والأمازيغ .
- « الأنديجان » اليهود .

كما انتشرت تسميات خاصة بالمسلمين لإذكاء التفرقة الإثنية والمذهبية الدينية لغرس الفتنة بين سكان الجزائر عامة، حيث عمدت السلطات الكولونيالية والكولون والكتاب والباحثون في الضفتين على استعمالها، وهي كالأتي :

- العرب .
- القبائل Les Kabyles وزواوة.
- الشاوية .
- الميزابيون أو الإباضيون .
- التوارق .

- سكان القصور Les Ksouriens .

وحتى الاستعمال المتعدد لهذه الأسماء تتباين دلالاته حسب طبيعة النص وموقف صاحبه من المخاطب إليه، وفي غالب الأحيان وكما يقول أمليش عبد الصمد: <> أن العرب صارت كلمة لا تدل على جنس العرب كسلالة بقدر ما تم شحنها من قبل المعمرين بدلالات تختزل كل من هو من الأهالي وحتى ولو كان أمازيغيا. وقد اختصرت هذه الدلالات تحت اسم الأندجين (Indigène) لما فيها من تمييز للإنسان الأهلي الذي يفتقد للمميزات التي ترفعه إلى مقابلته بالمعمر<>⁵، إن مفردة عربي اختفت من المعجم القانوني كفتة من الناس مع بداية سنوات 1850م، فالكلمة أصبحت مخصصة لكل ما كان ماديا (لوصف الملكية والضرائب، إلخ)⁶ الخاصة بالأنديجان لتمييزها عن كل ما هو فرنسي مثل الضرائب العربية، وهذا ينطبق كذلك على مفردة المسلم والتي لا تعني فقط ديانة الأنديجان المسلمين، بل تنطبق على حالة ووضعية اجتماعية لآخر⁷، أي «الأنديجان» المسلم، وهكذا غذي التصور الاستعماري ببعض المنعكسات الإيقونية، وعلى سبيل المثال: العربي المسلم والأوروبي المسيحي هم إشارات وأقطاب مرجعية في ميكانيزمات الانتماء العرقي والديني، يُكونون مجموعة من القوانين والمرجعيات الخاصة، فالعربي/المسلم يميز إلى السلبي عكس الأوروبي الذي يمثل الإيجابية⁸.

المركز القانوني للجزائريين « كأنديجان »

إن الاستعمال السياسي والقانوني والاجتماعي لكلمة « أنديجان » Indigène كان ولا يزال محل خلاف بين السياسيين ورجال القانون والمؤرخين والمختصين في تاريخ الإستعمار، فمن الناحية الإيتيمولوجية فمعنى كلمة الأنديجان Les indigènes هم السكان الأصليين لإقليم وبلد ما، وتقابلها في اللغة العربية كلمة الأهالي، وقد ورد هذا اللفظ جمعا ومفردا وترادف مع لفظ المحليين Les autochtones بالدلالة نفسها⁹، وكذلك مع مفردة Les Natifs، وهذا التعريف متداول في القواميس الفرنسية بشكل واسع، وأضيفت له دلالات أخرى حسب طبيعة الموضوع والفترة الزمنية المدروسة.

لقد اعتبرت السلطات الفرنسية الجزائريين منذ بداية الاحتلال « أنديجان » حتى لا تسقط في الإشكال القانوني والسياسي المتعلق بالوضعية القانونية لسكان الجزائر، وهذا ما تضمنه قرار القائد العام لقوات الاحتلال الفرنسي البارون بارتزن Berthezène المؤرخ 9 جوان 1831 في مادته الأولى : كل اتفاق ومهما يكن بين الأوروبيين والأنديجان...¹⁰، وحسب هذا النص القانوني يتبين لنا أنه منذ بداية الاحتلال أطلقت على سكان الجزائر تسمية « أنديجان»، في حين

جاء في وثيقة الاستسلام ليوم 5 جويلية 1830 في الفقرة 5 : ... حرية السكان Les habitants من كل الطبقات¹¹، في هذه الوثيقة التاريخية-السياسية استعمل مصطلح السكان بشكل عام ومجرد مما يجعل الخطاب يشمل كل سكان الجزائر المحروسة من المسلمين وغير المسلمين وحتى الأجانب المقيمين بالجزائر عشية الغزو، كما لا نجد في هذه الوثيقة صفة ولا مصطلحا خاص بهؤلاء السكان مثل : الجزائريون، العرب، المسلمون، وهذا يمكننا تأويله على أنه تمهيد لإسقاط تسمية الجزائريين عن سكان الجزائر وحذفها من قاموس الخطاب الكولونيالي، وذلك لعدة اعتبارات وخاصة السياسية والمتمثلة أساسا في طبيعة الوجود الفرنسي بالجزائر في الفترة التي يطلقون عليها «مرحلة التردد» والممتدة ما بين 1830 و1834، والتي كانت غير واضحة ولم تكن السلطات الفرنسية قد وفرت لهذا الوجود عناصره القانونية، فإن استعمال صفة « الجزائري » لتعيين السكان المحليين كانت تتجنبها حتى النصوص القانونية¹²، وبشكل عام فمصطلح الجزائري لم يظهر أبدا في النصوص الرسمية¹³ الفرنسية، لأن ذلك يعني الاعتراف بوجود الجنسية الجزائرية .

وكما هو معلوم ومتعارف عليه تاريخيا وسياسيا أن صفة السكان تكون مطابقة لإسم بلدهم بغض النظر عن انتمائهم الديني أو الإثني، مثل فرنسي-فرنسا/ ألماني-ألمانيا/ جزائري-الجزائر، وهذه المطابقة لم تستعمل في الجزائر، وهناك من ذهب إلى قول بأن كلمة الجزائر Algérie لم تكن متداولة من قبل الفرنسيين في بداية الاحتلال حتى تطلق تسمية الجزائريين على سكانها، فهذا أمر غير صحيح، لأن الأمر المؤرخ بتاريخ 1831/12/1 المتعلق بإنشاء الإدارة المدنية والمالية بالجزائر جاء في نص المادة 2 : >> بدءا بنشر هذا الأمر في الجزائر-en Algérie¹⁴، ومما تقدم يتأكد بشكل واضح أن كلمة Algérie كانت مستعملة للدلالة على إقليم الجزائر في حين كان يستعمل مصطلح أيلة الجزائر La Régence d'Alger للتحدث عن المرحلة التي سبقت الاستعمار .

وقامت السلطات الكولونيالية الفرنسية بعد احتلال الجزائر مباشرة بتحويل سكانها من مسلمين ويهود إلى رعايا « أنديجان»، وحسب ج.فانيرير دو بيان J. Verniers de Byans في تعريفه للرعية الفرنسي: «على أنه رعية فرنسي كل « أنديجان» (أهلي) أصله من البلدان الخاضعة عن طريق الإلحاق للسيادة المباشرة لفرنسا ولم يتحصل على الجنسية الفرنسية أو جنسية أجنبية»¹⁵، وهو مركز قانوني جديد وغريب في المنظومة القانونية الفرنسية، وهذا ما ذهبت إليه لور بلفيس Laure Blévis في مقال لها حول المواطنة الفرنسية: « بأن القانون الكولونيالي خلق مركزا قانونيا جديدا وهو الأنديجان ويسمى أيضا الرعية Sujet في المؤلفات

الفقهية (القانونية)»¹⁶، ولكن كما لاحظت إيمانيل سعدة E. Saada : « أن في الممارسة العملية تستعمل الفئتان (الرعية أو الأنديجان) بشكل متبادل¹⁷ » كما كان هذا الاستعمال منتشرا في الكتابات والمؤلفات الأدبية والفكرية والخطابات السياسية، ويرى أستاذ التشريع الكولونيالي روني مونيي René Maunier : « أن الأنديجان لهم حقوق أقل من الفرنسيين لأنهم أقل شأنًا منهم وغير مساوين لهم، ولهذا أن كلمة رعية تحدد جيدا وضعيتهم»¹⁸.

أما في النصوص القانونية فإن فئة رعية Sujet أطلقت على كل من يحمل الصفة الفرنسية في عهد الأنظمة الملكية، ولم تكن موضوع اتفاق فيما بين رجال القانون لعدم الاتفاق على هذه الصفة « للأنديجان»، ولم تستعمل أبدا في النصوص التشريعية أو التنظيمية التي تفضل مصطلح أنديجان¹⁹ بدلا من استعمال مصطلح رعايا، وهذا ما يدفعنا للوقوف والتمعن والتساؤل عن الهدف من إبعاد وإسقاط مصطلح رعية من المنظومة القانونية الكولونيالية والإبقاء على كلمة «أنديجان»، وخاصة أن فئة << رعية >> تكون دون شك الأصح من الناحية القانونية في مقابل << أنديجان >> التي لها دلالة سوسيولوجية²⁰، وحسب ه. أندري Hervé Andres : « فإن استعمال عبارة أنديجان...أو رعايا فرنسيين: (هي) تعبيرات لا تدل على التبعية السياسية ولكن تدل على الخضوع للغالب»²¹، وهذا ما ذهب إليه كذلك كريستيان بريتشي Christian Bruschi في مقال له تحت عنوان La Nationalité dans le droit colonial : « الأنديجان هم تحت السيطرة الفرنسية ولا نستطيع التأكيد على صفتهم الفرنسية »²²، >> فأعضاء أي مجتمع تعريفا : هم خاضعون بدلا من مواطنين أحرار إذا لم يكن لديهم رأي في الكيفية التي تمارس بها السلطة السياسية»²³، وهذا ما كان ينطبق على الجزائريين، إذن فمن هذا المنظور فالجزائريون لم يكونوا في بداية الاحتلال رعايا فرنسيين بالمعنى القانوني والسياسي، وفي هذه الحالة ما هي السيادة التي كانوا يخضعون لها ؟ وبالتالي هل أُعتبروا أجنب ؟ وهل يُعقل أن يكون صاحب الأرض أجنبيا في بلاده وأرضه ؟

إن هذا التساؤل يجعل من الوجود الفرنسي بالجزائر في حد ذاته من منظور القانون والعرف الدولي غير شرعي، >> ففي القانون الدولي، فإن القاعدة المعتادة في موضوع الجنسية أنه عندما تنتهي سيادة دولة على إقليم ما وتخلفها دولة أخرى فإن الذين يعيشون في هذا الإقليم يحصلون أليا على جنسية هذه الدولة الجديدة ويفقدون جنسيتهم السابقة»²⁴، وقد ألحقت الجزائر بفرنسا بموجب الأمر الملكي الصادر في 24 فبراير 1834، وأطلق عليها تسمية الممتلكات الفرنسية بشمال إفريقيا بناء على المرسوم الملكي المؤرخ في 22 جويلية 1834، وألغى هذا المرسوم «خضوع» الجزائر للدولة العثمانية²⁵ سياسيا وقانونيا، وحوّل هذا

المرسوم الجزائري إلى مملكة فرنسية ولكنه لم يشر إلى صفة سكانها الأصليين²⁶، وهو بذلك قد ألغى المركز القانوني السابق لسكانها إلا أنه لم يمنحهم مركزا جديدا، ولم يعتبرهم رعايا فرنسيين كاملي الحقوق والواجبات بحكم الوضع القانوني الذين ألوا إليه، وفي نظر كلود لازار Claude Lazard: « أن في 22 جويلية 1834 أصبح الأنديجان الجزائريون فرنسيين²⁷ ، أما باتريك ويل Patrick Weil في مقال له حول الوضع القانوني للمسلمين في الجزائر، يرى : « أن الجزائريين كانت لهم جنسية الرعية المفترضة بطريقة أو بأخرى والتي لم تؤسس على سند حقوق ولكن على حقيقة أنهم تحت السيادة المباشرة والفورية لفرنسا»²⁸.

إن مسألة جنسية « الأنديجان » >> لم تفصل فيها بوضوح أمرية 1834 ولا دستور 1848، واعتبرت هذه النصوص على أنها صرحت بالإلحاق، ولم تُعبر على أن الأنديجان منحوا الجنسية الفرنسية على هذا الأساس >>²⁹، وبالمقابل لديهم جنسية الرعية وليست لهم الحقوق التي تصاحب الجنسية كما هو عليه بالمتروبول³⁰، و>> إن لم تكن لهم صفة المواطن الفرنسي على الأقل لهم صفة الرعية الفرنسي. والحجة المقدمة في هذا المنحى في الحكم الصادر عن المحكمة العليا التي تدخلت في الاستئناف ضد حكم محكمة الجزائر العاصمة، على أساس هذا المبدأ من القانون الدولي وهو: « لا يمكن لأحد أن يكون له وَطَنَيْنِ » >>³¹.

وعلى الرغم من وجود مبادئ واضحة في القانون الدولي لا تحتاج للتأويل، وتفرض على فرنسا منح الجزائريين حق التمتع بالجنسية الفرنسية، إلا أن السلطات الكولونيالية علقت المسألة إلى أن فصل فيها القضاء الفرنسي، حيث >> أعتزف القاضي (الفرنسي) بالصفة الفرنسية للأنديجان الجزائريين بواسطة حكم هام لمحكمة الجزائر الصادر في 24 فبراير 1862، وأكدته محكمة الاستئناف بقرار 15 فبراير 1864 >>³²، وكما قالت ل. بلفيس L. Blévis: « ينبغي انتظار حكم محكمة الاستئناف بالجزائر العاصمة حتى يعترف لسكان الجزائر بأن لهم الصفة الفرنسية، أي الجنسية الفرنسية »³³.

وقد بقي الوضع القانوني للجزائريين غامضا حتى صدور المرسوم المشيخي المؤرخ في 14 جويلية 1865 والمتعلق بموضوع الجنسية/المواطنة (قانون التجنيس)، فالحل القانوني، لم يعطى إلا من قبل المادتين 1 و2 من المرسوم المشيخي لـ 14 جويلية³⁴ 1865، والذي بين فيهما صراحة الوضع القانوني « للأنديجان » في الجزائر ، حيث نصت المادة الأولى : >> الأنديجان المسلم هو فرنسي...<< وجاء في المادة الثانية : >> الأنديجان الإسرائيلي هو فرنسي...<<. -ولا نريد الخوض في هذا المقال حول إشكالية الجنسية/المواطنة التي أبتدعها هذا المرسوم- وقد فصل

هذا القانون في مسألة الانتماء السياسي والقانوني « لأنديجان » الجزائري، حيث اعتبر سكان الجزائر من المسلمين واليهود فرنسيين غير مواطنين وذلك حسب نص المادتين 1 و 2 من نفس المرسوم بحجة أنهم يخضعون لقوانينهم الخاصة المتعلقة بالأحوال الشخصية، ولكن عمليا تم تجريد الجزائريين حتى من أبسط حق من حقوق المواطنة من قبل دولة ترفع شعار حقوق الانسان والمواطن، وهذا ما يتعارض مع النصوص القانونية الفرنسية ذاتها وبالأخص المادة الثامنة من قانون نابليون التي تنص على: «> كل فرنسي، يتمتع بالحقوق المدنية»³⁵، في حين أن القانون المدني، ووفقا لروح الثورة الفرنسية، يربط الجنسية بشكل منهجي مع الحقوق المدنية والسياسية، جاعلا مبدئيا كل فرنسي مواطناً³⁶، إلا أن في نظر سياسي ومنظري المشروع الكولونيالي فإن الاعتبارات الإثنولوجية والأنتروبولوجية والدينية هي التي كانت تشكل حاجزا في عملية إدماج الجزائريين وترقيتهم إلى مستوى رعايا مواطنين ونقلهم إلى المستوى الحضاري الذي يمكنهم من الانخراط في المجموعة الوطنية بشكل سلس، ولذا رؤوا في الفصل والتمييز بين الرعية «الأنديجان»/الرعية المواطن هو أمر ضروري وما هي إلا مسألة وقت حتى يتم الإدماج النهائي وبشكل تدريجي لهذه الفئة، وهكذا >> فالتمييز بين المواطن الكامل الحقوق والرعية الذي تعرض للغزو وأندمج كوطني فرنسي ولكن محروم من الحقوق، تمت بلورته ببطء في الجزائر، المستعمرة منذ عام 1830، لتطبيقه على المستعمرات الجديدة³⁷ >> .

مصطلح « الأنديجان » في الكتابة التاريخية

إن الاختلاف القائم اليوم لدى المختصين في تاريخ الاستعمار لازال يدور حول الاستعمال الصحيح لمصطلح « أنديجان»، وهذا ما طرحته لور. ب. Laure Blévis في تساؤل أكاديمي بقولها: « هل يمكننا التحدث عن الجزائريين بغض النظر عن حقيقة أنهم أثناء الهيمنة الاستعمارية كانوا فرنسيين، وأن فرنسيي الجزائر تسموا بالجزائريين، وهل يمكننا قول عكس ذلك بأنهم « أنديجان» مسلمين حتى نوافق النصوص القانونية، أو ينبغي علينا أن نختار تعبيراً كما فعل المؤرخ الفرنسي أجيرون CR.Ageron بنائه تعبيراً لم يكن خلال الحقبة الاستعمارية باستعماله تعبير >>المسلمون الجزائريون»³⁸، بينما يرى هرفي أندري Hervé Andres : (ضرورة) استعمال فئة الأنديجان (دون الرغبة في نشر دلالاته التحقيرية)، لأنه ببساطة هو المصطلح الأكثر استخداماً من قبل الفقه القانوني الكولونيالي³⁹، هذا الطرح يبين لنا مدى الاختلاف القائم اليوم في مسألة الاستعمال الصحيح لعبارة تدل وتصف سكان الجزائر في الفترة الاستعمارية، لذا نجد الكثير من يستعمل كلمة « أنديجان » ويضعها بين شولتين ليبين أن

له موقف من هذه الصفة ويضع مسافة فكرية بينهما، وهناك من يستعمل كلمة مسلمين، وآخر يستعمل كلمة عرب، أما المؤرخون والكتاب الجزائريين بشكل عام يستعملون تسمية الجزائريين عندما يؤرخون للفترة الاستعمارية، إلا أن هذا الاستعمال يحمل في طياته تساؤلات عن موقع الفئات الاجتماعية غير المسلمة والتي كانت من الناحية التاريخية جزائرية والتي أعتبرت نفسها كذلك .

إن هذا الاختلاف يعكس في حقيقة الأمر ذلك الخلاف حول السياسة الكولونiale الفرنسية في الجزائر ومشروعها الإدماجي « التمديني » تجاه المسلمين خاصة، فالتباين في استعمال هذه التعبيرات يعكس في حقيقة الأمر طبيعة القراءة الخاصة لكل باحث وتوجهاته ورؤيته لهذه الفترة، فما هو تأثير هذه الاختلافات على الكتابة التاريخية الموضوعية لتاريخ الجزائر؟ وهل محاكاة النصوص القانونية يقف عند احترام السياق التاريخي الذي ولدت فيه كلمة « أنديجان » فقط أم له أبعاد أخرى؟ ألا يعتبر عدم التقييد بما جاء في النصوص القانونية هو مغالطة تاريخية، وأنه في حد ذاته موقف ؟

إن الكثير من المهتمين بمجال تاريخ الاستعمار في الضفتين لا يولون أهمية لهذا الإختلاف، ومنهم من يرى أن المسألة لا تؤثر في الحقيقة التاريخية لأن المعاملة الكولونiale تجاه المسلمين سواء من قبل السلطات أو الكولون كانت مجسدة ومطابقة لدلالة « أنديجان»، كما >> أن الاستعمال المتبادل لكلمتي أنديجان والعرب يكتسي صفة مهينة للجزائريين بغض النظر عن الصفة التمييزية الثانوية بين العربي والقبائلي والميزابي أو البربري عموما، طالما أنه في جميع الأحوال أدنى من الفرنسي أو الأوربي»⁴⁰، وحسب لور.ب. Laure Blévis : « أن البحث عن الكلمة السليمة والعبارة الصحيحة يبقى أمر غير مجدي »⁴¹، واعتقد أن مثل هذه المواقف هي التي فتحت المجال للاستعمال المتعدد والمتباين للتسميات المختلفة تجاه المسلمين (الجزائريين) من قبل الباحثين والدارسين والسياسيين، وأحيانا تتعدد التسميات داخل النص الواحد، ولذا إننا نعتقد أن استعمال مصطلح « أنديجان » الموضوع كما جاء في الخطاب الكولونالي الرسمي مع وضعه بين شولتين يحقق غرضين أساسيين، وهما :

أ- احترام السياق التاريخي الذي ولد في رحمه هذا المصطلح لأن المصطلحات الأخرى لا تعكس تلك الدلالة التحقيرية لصفة « أنديجان » التي كانت ملخصة ومجسدة للممارسة والمعاملة الكولونiale للجزائريين طيلة الفترة الاستعمارية.

ب- إن الاستمرار على استعمال كلمة « الأهالي» التي ماهي إلا ترجمة حرفية لكلمة Indigènes والتي لا تحمل تلك الدلالة التحقيرية مع العلم أن مصطلح « الأنديجان» الذي استعملته فرنسا الكولونiale كانت له دلالات أخرى هي مغالطة تاريخية حتى لا نقول ماهي إلا عملية تمويه وتغطية عن الحقيقة التاريخية .

وبناء على ما تقدم وللخروج من هذا الاشكال الإتيولوجي ومن الناحية الموضوعية كذلك علينا أن نسمي الأشياء بمسمياتها حسب سياقها التاريخي، فإن لفظ «الأنديجان» المعربة هي الكلمة الصحيحة والمطابقة لكلمة « Indigènes Les » التي أطلقتها فرنسا على سكان الجزائر، وهذا لايعني أننا نساير ونحاكي الكتابات الكولونiale ولكن إننا نؤكد ونسجل للتاريخ الحالة والوضعية التي آل إليها الجزائريون من جراء النظرة العنصرية التي عانوا منها في الفترة الاستعمارية، كما أننا نَعري طبيعة وحقيقة فرنسا الكولونiale، وندحض ادعاءاتها، حتى يبقى مصطلح « أنديجان» وسمة عار يلاحقها عبر التاريخ، كما يجعلها تخجل من تاريخها الأسود كلما ذكر تاريخ الاستعمار.

أما تسمية المسلمين التي استعملت بدلا من مصطلح « أنديجان» من قبل النخبة الجزائرية (المسلمة) بمفهومها الواسع خاصة قبل نشأة الحركة الوطنية كانت بغرض الدفاع عن هوية وشخصية المجتمع الجزائري في مواجهة الخطاب الكولونالي والسياسة الكولونiale ومشاريعها، وكان من حقها القيام بذلك بل من واجبها باعتبارها لسان حال شعبها وأنها جزء منه وطرف في النزاع، ومعنية بالخطاب، وبالتالي فإن الاستمرار على نفس الطرح اليوم ما هو إلا قراءة خارج السياق التاريخي للمصطلح، واعتقد أن من بين الأسباب التي دفعت بهذه النخبة إلى تحاشي استعمال كلمة الجزائريين في خطاباتها السياسية ونصوصها الأدبية وغيرها، وهي:

- لإبعاد الشبهة عنها وحتى لا تتهم بالتحريض على أنها تدعُ إلى الوطنية وتعارض الوجود الفرنسي.

- بغرض التمييز بين المسلمين واليهود لإختلاف مطالبهم.

- للدفاع عن الهوية الدينية للشعب الجزائري .

- تجنب استعمال كلمة الجزائريين لأن حتى الكولون زاحموا الجزائريين في التسمية بغرض

إفراغها من دلالتها الوطنية، >> فأطلق مناضلو الحكم الذاتي من الكولون في نهاية القرن 19م على أنفسهم صفة «الجزائريين»، ولكن ليميزوا عن « الأنديجان» وفرنسي فرنسا>>⁴².

ومما تقدم علينا بإعادة النظر في كثير من المصطلحات التاريخية للفترة الاستعمارية والمتجمة حرفيا على سبيل المثال : الاستعمار- «استسلام» الأمير/طلب الأمان - النخبة الجزائرية - قانون الأهالي/قانون الأنديجينا - المقاومة/الانتفاضة/الثورة - دستور الجزائر/ القانون الخاص بالجزائر - بيان/نداء نوفمبر...ألخ.

إن تحديد المعنى ودلالة المصطلح يؤسس لكتابة تاريخية موحدة غير متناقضة بين ماهو أكاديمي/تعليمي تربوي، ويكون الكل نابع من مدرسة تاريخية وطنية، وإذا بقينا على ما نحن عليه اليوم من اختلاف وخلاف حول مفهوم هذا المصطلح أو ذلك وحول دلالة الألفاظ ومعانيها فإن الخطر القادم يكمن في مقولة الخطأ الشائع يولد الحق .

الهوامش

- 1 - وضعت كلمة « أنديجان » بين شولتين لأبين أن لي موقف معارض للدلالة المقصودة من المصطلح الذي استعملته السلطة الفرنسية والكولون تجاه الجزائريين، وبشكل عام إن استعمال الشولتين معناه وضع مسافة فكرية مع المصطلح أو عبارة أو كلمة ..ألخ.
- 2 - علي قوادرية، العلاقة مع الآخر والتصورات الاجتماعية في الإيديولوجية الاستعمارية: الجزائر كنموذج، (الملتقى الدولي الرابع حول ثورة التحرير الجزائرية - التطور التاريخي لصورة الجزائري في الخطاب الكولونيالي يومي 25 و 26 أكتوبر 2009) www.univ-skikda.dz
- 3 - نفس المرجع .
- 4 - يوسف قاسمي، « الأهالي » الجزائري في الخطاب التعليمي- الثقافي الكولونيالي الفرنسي، (الملتقى الدولي الرابع حول ثورة التحرير الجزائرية - التطور التاريخي لصورة الجزائري في الخطاب الكولونيالي - يومي 25 و 26 أكتوبر 2009) . http://www.univ-skikda.dz
- 5 - لميش عبد الصمد، صورة الأهالي من خلال الأدب الشعبي لأصحاب الأقدام السوداء ما بين 1890-1920، الملتقى الدولي الرابع حول ثورة التحرير الجزائرية - التطور التاريخي لصورة الجزائري في الخطاب الكولونيالي - يومي 25 و 26 أكتوبر 2009، www.univ-skikda.dz
- 6 - Laure Blévis , Les avatars de la citoyenneté en Algérie coloniale ou les paradoxes d'une catégorisation ; Droit et Société 48-2001, (p. 557-580), p 578.
- 7 - Ibid, p 577.
- 8 - علي قوادرية، المرجع السابق.
- 9 - لميش عبد الصمد، المرجع السابق .
- 10 - P. De Ménerville, De la législation Algérienne, V1, 1830-1860 ; 2eme Edition, Alger, Bastide Libraire, 1867,702 pages. p 3.
- 11 - P. De Ménerville, op.cit.p 5.
- 12 - Laure Blévis , Les avatars de la citoyenneté en Algérie ... ; op.cit, p 574.
- 13 - Jean Sprecher, Le statut de l'Algérie et de ses habitants ; article de la rubrique les deux rives de la Méditerranée les « populations » de l'Algérie coloniale , http://ldh-toulon.net/Le-statut-de-l-Algerie-et-de-ses.html, date de publication : juillet 2003.

- 14 - P. De Ménerville, op.cit. p 6.
- 15 - J. Verniers de Byans, La nationalité aux colonies ; Darest, 1911, II, pp. 9-20, p 3.
- 16 - Laure Blévis, La citoyenneté française au miroir de la colonisation : étude des demandes de naturalisation des « sujets français » en Algérie coloniale ; Genèses 4/ 2003 (no53) , pp. 25-47, p30.
- 17 - Hervé Andres, Droit de vote : de l'exclusion des indigènes colonisés à celle des immigrés ; Revue Asylon(s), N°4, mai 2008, pp135-, Institutionnalisation de la xénophobie en France, url de référence: <http://www.reseau-terra.eu/article733.html>- p 21.
- 18 - Olivier Le Cour Grandmaison , De l'indigénat. Anatomie d'un « monstre » juridique : le droit colonial en Algérie et dans l'Empire français ; La Découverte, 2010, 204 Pages, p16.
- 19 - Laure Blévis, La citoyenneté française au miroir de la colonisation ; op.cit, p30.
- 20 - Ibid, op.cit, p30.
- 21 - Poivre, Aimé , Les Indigènes algériens, leur état civil et condition juridique ; Librairie Algérienne de Dubos Frères , 1862, 74 pages, p21.
- 22 - Christian Bruschi, La Nationalité Dans Le Droit Colonial ; Procès, Cahiers d'analyse politique et juridique n° 18, 198788/, pp. 2961-, p42.
- 23 - James Tully, La conception républicaine de la citoyenneté dans les sociétés multiculturelles et multinationales ; Politique et Sociétés, vol. 20, n° 1, 2001, p. 123-146. p125. <http://id.erudit.org/iderudit/040253ar>.
- 24 - Laure Blévis, La citoyenneté française au miroir de la colonisation ; op.cit, p 27.
- 25 - Ibid.
- 26 - Christian Bruschi, op.cit, p 42.
- 27 - كلود لازار Claude Lazard صاحب أطروحة في القانون بجامعة باريس سنة 1938 تحت عنوان : <<L'accession des indigènes algériens à la citoyenneté française>>، ينظر Mohamed Sahia Cherchari, Indigènes et citoyens ou l'impossible universalisation du suffrage ; Revue française de droit constitutionnel 4/ 2004 (n° 60) , p 746 ,pp 741770- . URL : www.cairn.info/revue-francaise-de-droit-constitutionnel-2004-4-page-741.htm. DOI : 10.3917/rfdc.060.0741
- 28 - Patrick Weil, Le statut des musulmans en Algérie coloniale, Une nationalité française dénaturée, in La Justice en Algérie 1830-1962 ; La Documentation française, Collection Histoire de la Justice, Paris, 2005, pp.95-109. p 95.
- 29 - Hugues, Albert , La nationalité française chez les musulmans de l'Algérie ; thèse pour le doctorat , A. Chevalier-Marescq (Paris), 1899, 246 pages, p 14.
- 30 - Eric Maulin, Les statistiques ethniques et le mythe de la conception républicaine de l'égalité ; Bulletin de l'Observatoire des politiques économiques en Europe , N° 20 Été 2009 – Université de Strasbourg, p4.
- 31 - Hugues Albert, op.cit, p 15.

- 32 - Mohamed Sahia Cherchari, op.cit, p 745.
- 33 - laure Blévis , La citoyenneté française au miroir de la colonisation, op.cit, p 28.
- 34 - Hugues Albert, op.cit, p 15.
- 35 - Code Napoléon, édition originale et seule officielle, Éditeur : Imp. impériale (Paris), 1807, 732 pages.
- 36 - Eric Maulin, op.cit, p 4.
- 37 - Burbank Jane. et Cooper Frederick, Empire, droits et citoyenneté de 212 à 1946 ; Annales. Histoire, Sciences Sociales 2008/3,63e année, p. 495-531. p 513.
- 38 - Laure Blévis ;Socio-histoire de la citoyenneté en Algérie coloniale : enjeux et difficultés des études sur l'Etat colonial ; Texte présenté dans le cadre du séminaire d'histoire sociale de l'immigration, décembre 2004, pp1-29. p29. barthes.ens.fr/cliio/revues/AHI/articles/preprints/blev
- 39 - Hervé Andres, op.cit p 29.
- 40 - مـيش عبد الصمد، المرجع السابق .
- 41 - Laure Blévis, Socio-histoire de la citoyenneté en Algérie coloniale ; op.cit p 29.
- 42 - Laure Blévis, Les avatars de la citoyenneté en Algérie... ; op.cit, p 574.